الأسلام

وأثره في أسلوب لغة العرب

بقلم الأستاذ السباعي السباعي بيومي
أستاذ الأدب العربي بدار العلوم العليا

لغة الأمة مرآة ترى عليها صورتها بالحال التي هي عليها ؛ وهي شديدة الحس والتأثر بكل ما يعتريها ، ومن ثم كانت الانقلابات السياسية والدينية والاجتماعية ذات أثر بيّن في اللغات ؛ وبقدر ما يكون لتلك الانقلابات من قوة وسعة ، يكون التأثير في اللغة : صعوداً وهبوطاً ، رفعة وانحطاطاً .

ندلي بهذه المقدمة لنحكم بأن الاسلام ــ وهو ذلك الانقلاب الهائل الخطير ــ غير من أوضاع الأمة العربية تغييراً تناولها في كل نواحيها بدرجة لم تك لأي حدث في أية أمة سواها، حتى ليقال دون ــ مبالغة ولا تزيد ــ إنه خلقها خلقاً جديداً جعلها في حسها ومعناها غير ما كان عليه أسلافها ، فكان لذلك في اللغة من الأثر البالغ والتغيير الكبير ما نريد إجماله هنا .

١ ــ الانقلاب الحسي

عاش العرب محصورين في جزيرتهم لم يخالطهم فيها غيرهم ولم يرتحلوا للإقامة بعيداً عنها، وهي كما تعلم جزيرة ــ على سعتها ــ ليس بها نهر يجري ولا سهل يزرع كما للأمم حولها؛ إنما هي أرض تكاد تتقاسمها الصحارى والنجود ، وفيها من الجبال ذات الأودية مهبط الغيوث والأمطار ما ينبت العشب والكلأ مما تعيش عليه ماشيتهم من إبل وضأن ومعز يعيشون عليها ؛ فهي بلاد يحيا أهلها حياة البدو ، إلا من كان في بعض أطرافها من الحضر المتحضرين وهم قليل .

طالبتهم هذه الحياة أن يجيدوا وصف الأرض في الناحية التي عليها بلادهم من الصحارى المترامية الأطراف ذات الرمال المحرقة والمفاوز المهلكة ، ومن النجود العظيمة تشقها الأغوار البعيدة ، ومن الأودية المطمئنة تحدها الجبال الشاهقة ، وأن يجيدوا بالتبع لذلك نعت الإبل من رواحل وجزر ، فعلى الإبل حين الرحلة عادتهم ، ومن لحماتها وألبانها شبعهم وريهم ، ومن صوفها وأوبارها ملابسهم وخيامهم ، كما يجيدون وصف نبات البادية من كلأ وعشب ، ورياحينها من عرار وبهار ، وشجرتها ذات الصلة الوثيقة بها وهي النخلة التي برح البدو في معرفتها والوقوف على خصائصها ، فلم يتركوا منها شيئاً دون استخدام وانتفاع .

وطالبتهم — وهم قوم يعيشون فيها على المطر: إذا جادهم أخصبوا وأمرعوا، وإذا أخلفهم جدبوا وأقحطوا — أن يطيلوا النظر إلى السماء يتعرفون مواطن السحب والغمام والمطر منها والجهام، ومهاب الرياح باردها وحارها مستقيمها ونكبائها، لما لها من العلاقة الوثيقة بالأمطار. على أن لهم إلى نظر السماء — إذا صفا الجو وتبددت الغيوم — حاجة أخرى، فإن بها من النجوم ما عليه هدايتهم وفيه إرشادهم حيث يسيرون فى ظلمات الليل البهيم، وما كان مسراهم غالبا إلا به فراراً من حر الشمس التى تذيب بوهجها فى صحاريهم أدمغة الضباب.

وطالبتهم — وهم قوم رحل يتتبعون منابت الكلأ ولا يستقر بهم قرار — أن يعدوا للرحلة عدتها، فيتخذوا بيوتهم من الشعر يرفعونها إذا ارتحلوا ويضربونها إذا أقاموا، وأن يحسنوا وصف ذلك وما تعلق به من الصوف والوبر والأعمدة والأوتاد والفواصل والأطناب.

ثم طالبتهم أخيراً أن يكونوا فى مآكلهم وملابسهم على حال من التقشف والتبدى لا تدع لهم تلونا فى مأكل ولا تأنقا فى ملبس ولا تنوعا فى آنية ولا قنية لأثاث أو رياش، مما هو بالحضر كثير المشاهدة ليس منه لسكان المدن محيص.

هذا هو الميدان الحسى الذى كانت تتطلع فيه العرب جاهليتها، ومنه تنتزع حواسهم وبه تتأثر مشاعرهم، فلا يصدرون فى تصويرهم إلا عنه، ولا يعدون فى حسهم إلا منه. ولكن الإسلام إذ جاء غير من كل هذا فلم يكد يطالبهم بالجهاد والغزو فى ممتلكات الفرس والروم، حتى خرجت جماهيرهم إليها خروج السيل المندفع، فلم يمض صدر من خلافة عمر إلا وقد حطموا هاتين الدولتين، فأزالوا الأولى عن رقعتها فارس والعراق، وضعضعوا الثانية بما أخذوا من مصر والشام. وبهذا احتلوا ما اتسع من الأرضين يفلحونها ويزرعونها، واستوطنوا ما عظم من المدن يتمتعون بخيرها ونعيمها، وشاهدوا من مجالى الطبيعة الجديدة: الأنهار الجارية، والسهول الناضرة، ومن آثار الحضارة العريقة ما أنتجته حكمة فارس وصنعة الرومان وعلم مصر، فتبدلت بهم الحال غير الحال، ونسوا الصحارى وإبلها والنجاد ووهادها والبوادى ونبتها، ولم تعد حياتهم حبساً على المطر يتشوفونه من الجو المتلبد، ويتسمعونه فى الريح المزجى، ولا هدايتهم وقفاً على السماء الصافية ذات النجوم اللامعة، ولا طالبتهم رهناً بالرحلة يشدون أكوارها، فضعف فى كلامهم كل هذا وخلصوا منه، إلى ما يقابله مقابلة الحضارة للبداوة أو مقابلة التنعم للتقشف، بل السعادة للشقاء. وكانوا بذلك كله جد منتفعين، فما هى إلا ساعة من نهار حتى أشربوا هذه المدنية، وتغذوا بها وامتلكوا ناصيتها وزادوا فيها، وظهر ذلك عليهم ظهوراً حقاً ليس بالمقلد ولا المعار، ثم ما هى إلا عشية أو ضحاها حتى طبعت هذه الحضارة بطابعهم، واستحقوا — عن جدارة — أن يحوروا ويبتكروا ــ نسبتها إليهم، فقيل الحضارة العربية لا حضارة كذا ولا كذا، وحدث للغتهم كل هذا فأحسنت تصويره وأجادت نعته، وأصبحت تسمع فيها منذ الصدر الأول فى ميدان الحس، لم تك تسمع

فى حسن أداء وسعة خيال ؛ وإن كتب المغازى والفتوح لملأى بالأمثال والشواهد على ما جد فى هذا الباب .

٢ ـ الانقلاب المعنوى

وجاء الاسلام والعرب شتى المذاهب مختلفو المشارب . لا دين يجمعهم ولا عقيدة تنتظمهم ؛ فمنهم المشرك عابد الصنم والوثن ، وما هو إلا حجر ينحته بيده وينقلب يعبده دون نفع يرجى ولا ضر يخشى ، ومنهم الصابىء عابد الكواكب والنجوم لا يرى فى أفولها نقصاً ولا فى اختلاف أحوالها عيباً ؛ ومنهم المجوسى عابد النار والشمس يسجد لها فى طلوعها ويقيم بيوت النيران عظيماً لشأنها ، ومنهم الدهريون الذين ينكرون البعث والنشور ويقولون « ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » ، ومنهم الزنادقة الثنويون الذين يجعلون الصانع اثنين : فاعل خير هو النور ، وفاعل شر هو الظلمة ، ويقولون إنهما قديمان باقيان ، ومنهم عباد الشياطين مخافة شرهم ، وعباد الملائكة رجاء خيرهم ، ثم منهم اليهود والنصارى ، ومنهم غير من ذكرنا ؛ فجاء الاسلام يدعوهم إلى دين واحد أساسه شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا ، فتميز تلك القواعد الخمس بالتوحيد وجعل الجهاد من أجله فرضاً ، وأنذرهم أنه يغفر ما يشاء لمن يشاء إلا أن يشرك به ، قال عز شأنه « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ، وبهذا وحد بينهم فى العقيدة وجمعهم فى صعيد للعبادة ، وكان هذا الاتحاد القلبى النعمة الكبرى التى امتن بها عليهم إذ يقول لهم « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » .

وجاء الاسلام والعرب أسرى أوهام وخرافات يدينون بالعرافة والكهانة ويعتقدون فى الزجر والعيافة ، بل فيما هو دون ذلك من سائر الأوهام كالصدى والهامة وتعليق الحلى على الملدوغ ليسلم ، وكى الصحيح ليبرأ الأجرب ، وضرب الثور ليشرب البقر ، ووطء المقلات دم الشريف ليعيش ولدها ، إلى غير ذلك مما ران على قلوبهم وغشى من أبصارهم ؛ فانتزعه الاسلام منهم وانتزعهم منه ، وبذلك خلصت من الأوهام عقولهم وسلمت من التخريف أفكارهم .

وجاء الاسلام والعرب تدين بالعصبية والقوة ، يفنى كثيرهم قليلهم ، ويأكل قويهم ضعيفهم ، لا يزالون يزاولون النهب والسلب والابتزاز والغصب ، تقوم بينهم الحرب لأوهى سبب ويطول على بقائها فيهم الأمد ، فتفنى لذلك كبارهم وتنقطع منه ذراريهم وأنسالهم . جاء الاسلام فكان رايةالسلام يتظللون بظلها وآية الوئام يعملون على تأييدها ، فلا قتال إلا فى نشر دين الله ولا غزو إلا فى إعلاء كلمته ، وبذلك تم توحيد كلمتهم وصاروا يداً واحدة على من سواهم ؛ فى غير تفاخر بالآباء والأجداد ، ولا تكاثر بالأموال والأولاد ، وكما سوى بينهم فجعل أكرمهم عند الله أتقاهم ، جعل هذا أساس تفضيلهم على غيرهم ، فلا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى

وجاء الاسلام وفى العرب غلظة دونها أكباد الإبل، وقسوة أهون منها قسوة الحجارة: يقتلون أولادهم للفاقة ويئدون بناتهم للقالة « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودًا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يعملون ». فنعى عليهم جفوتهم وشدد النكير على فعلتهم ، قال تعالى « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئًا كبيرًا » ، وقال فى موطن آخر « وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت » فسلكها مع جسام الحوادث تهويلاً لها وتبشيعا، ثم أكثر مطالبتهم أن يكونوا أرقاء القلوب رحماء فيما بينهم، فكانوا كما أراد ، وظهر ذلك فيهم ظهور الشمس فى الرابعة حتى فى الشخص الواحد من مخضرميهم، وآية ذلك عمر رضى الله عنه ، كان فى جاهليته من أقسى القساة وصار فى إسلامه أرحم الرحماء إلا ما أصاب بشدته فيه داعى الدين .

وجاء الاسلام والعرب مضطربة فى معاملتها ، تأكل الربا الفاحش وتلعب الميسر المدمر، وتقدم على أعمالها بالأنصاب والأزلام فتكف عما أرادت وتقدم على ما كرهت . فأحل الله البيع وحرم الربا ونهى عن الميسر والاستقسام، حيث نهى عن الخمر، ونظم لهم معاملتهم فبدل من ظلمهم عدلاً ومن فوضاهم نظامًا ، وجعل لهم تشريعًا مدنيًا شاملاً لم يسبق مثله، ولم يلحقه إلا ما هو منه أو ما هو دونه، وكذلك فعل فى التشريعين: الشخصى والجنائى، وسائر التشريعات الأخرى ، مما لا تزال السمحاء تعلو به سائر الشرائع وتعد العالمين بالبرهان الساطع والنور اللامع الذى لا ينقطع ضوءه ولا يخبو شعاعه ، والذى لا يزال على مدى الأيام تتكشف أسراره وتتضاعف أنصاره ، فيعترف به الجاحدون ، ويرى بعد نظره المتبصرون ، وإن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون.

هذا طرف مما أتى به الاسلام مغيرًا لنفسيات العرب فى عقائدهم وعباداتهم: عاداتهم وأخلاقهم، معاملاتهم ونظم حياتهم ، وما كان أسرع ما طبعوا عليه وعملوا به واتخذوه الإمام الذى لا يعصى والقدوة التى لا تنسى ، وظهر ذلك فى عامة أحوالهم وأولاها لغتهم ، فقد حادوا بها عن القديم إلى الجديد ، فلم يك فيها للمعبودات السالفة شأن، ولا للأوهام والخرافات ذكر إلا ما كان على سبيل الزراية والعيب . كذلك لم تبق ميدانًا للتنافر بالعصبية والدعاء بدعوة الجاهلية، وأداة لتحسين ما تقبحه العقول ، والترغيب فيما تنفر منه النفوس ، دون تورع ولا حياء، إنما صار الشأن فيها كل الشأن لإقرار كلمة التوحيد ونشر [illegible] الدين والعمل على تغذية الأمة بروحه ووقفها على أسراره، حتى تستعصم بحبله الذى لا ينقطع، وتستمسك بعروته التى لا تنفصم . وشتان بين ما كان وبين ما أصبح كائنًا من كلام، فقد هجرت ألفاظ وجدت ألفاظ وماتت معان ونشأت معان وعدل عن أغراض إلى أغراض ، وما هذا بالمحتاج إلى إيراد الشواهد وضرب الأمثال .

النتيجة

وإذن فقد تغير من العرب بالاسلام حسهم ومعناهم، بصرهم وبصيرتهم ، إن استوحوا الخيال فمن ميدان غير الميدان ، وإن استلهموا القلب فمن نفس غير النفس ووجدان غير الوجدان ، على أن التغير لم يقف بهم عند هذين الانقلابين فحسب ــ وقد كانت فيهما الكفاية كل الكفاية ــ

بل أمدهم بمثال آخر هو القرآن الكريم ، فى قوة بلاغته وتمام إعجازه ، فكان أمامهم المثل الجلى وموطن المحاكاة والتقليد ، فى كل ما يحاولون من قول ويريدون من كلام .

بهرهم ببديع أسلوبه ومحكم آياته وتلازم فواصله فخروا أمامه ساجدين وطفقوا به يستعينون ومنه يقتبسون ، فكان النبع المعين ذا الماء الصافى والقرار المكين . ومع عام عجزهم عن محاكاته ، ظهر أثره فى كلامهم ، لفظاً وأسلوباً ، ومعانى وأغراضاً ، وأخذ بيد اللغة إلى الذروة التى بلغتها والمكانة التى احتلتها ، حتى حق للباحثين فى الأدب — من أجل ذلك — أن ينسبوا إليه كل ما حدث بها من رقى وظهر فيها من قوة وسلطان .

نعم إن للانقلابين السالفين من التأثير فى اللغة ما كنا نجد آثاره لو جاء الكتاب — كما جاءت الكتب قبله — بلغة لا إعجاز فيها ولا إفحام ، وإلا لسلمنا الأحداث الدينية والسياسية قوتها وطعنا فى نظم العمران والاجتماع ، ووقفنا إزاء الحوادث تكذب دعوانا وتقوم شاهدة على النقيض منا ، ولكن القائلين بهذه النسبة لا يقفون من أثر القرآن فى اللغة عند حد الفصاحة والبلاغة فى الألفاظ والأساليب من حيث التعبير عن المعانى والأغراض ، فيكون لما أوردناه آنفاً حق الإيراد ، وإنما يتجاوزون هذا الجانب منه إلى أنه موطن التشريع والتعليم والتقويم والتهذيب ، إلى أن هذا الانقلاب المعنوى قد جاء بدعوته وتم على يده ، فكل ما عند العرب منه ، إليه ينتسب ومنه يتشعب ، لا مبالغة فى هذا ولا مراء . أما ذلك الانقلاب الحسى فرجعه إليه آت من تشريعه الجهاد ، فإن الدعوة المحمدية لم تجىء خاصة بقوم صاحبها كما جاءت سوالف الدعوات وإنما جاءت عامة للناس كافة وتقرر لتحقيق هذا التعميم وجوب الجهاد ، فكان صلى الله عليه وسلم أن يدعو الأمم جميعاً إلى ما فيه سعادتهم وهو دين الله ، فإما أجابوا وسمعوا وإما حملهم على ذلك بالسيف حملاً ، هكذا فعل فى حياته ، وبه اقتدى خلفاؤه من بعده ، فخرج العرب من جزيرتهم إلى ما أدلفناه من أقاليم ذات مزارع وأنهار ومدن وأمصار شاهدوا فيها ما شاهدوا من كل جديد عليهم ، وتأثروا بما تأثروا من كل غريب عنهم ، وبذلك انقلبوا الانقلاب الحسى المذكور ، ولولا تشريع القرآن للجهاد تشريعاً جعل الموت فيه أحب إلى العرب من الحياة ، وجعل الخنساء وقد قضت جاهليتها باكية أخاها لأبيها ، تسجد لله شكراً حين جاءها من القادسية نعى بنيها ، لما قعدت العرب تلك الفتوح ولا خرجت للجهاد ثم للإقامة هذا الخروج ؛ فمن هنا يكون صدق الدعوى واستقامة الكلام ؛ ومن ثم يجب أن يكون للقرآن دراسة مستفيضة تشرح ماله باللغة من علاقة وفى شتى نواحيها من تأثير ، ومن بعده تكون دراسة الحديث ، فقد رأت العرب فى كلام رسول الله — وهو منهم وكلامه من نوع كلامهم الفصاحة المتدفقة والبلاغة المتمكنة ، تجاذب كل قبيل بأحلى ما عرف فى لغته وأتقن ما سمع من لهجته ، لأنه نشأ فيهم وربى فى أوساطهم ، وكان ذلك فيه عن سليقة وطبع ، فأخذوا يقصدون قصده وينهجون نهجه حتى ازدانت ألفاظهم بدرر ألفاظه ، وأشرقت معانيهم بغرر معانيه ، وجاءت السنة معقبة للكتاب فيما دخل اللغة من تقدم وارتقاء .

السباعى السباعى بيومى